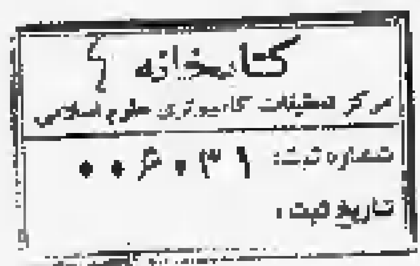
شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد



بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم



الجزء الأول

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

القول فى نسب أمير المؤمنين علىّ عليه السّلام
وذكر لُمَع يَسيرة من فضائله

هو أبو الحسن علىّ بن أبى طالب ـ واسمه عبدمناف ـ بن عبدالمطلب ـ واسمه شيبة ـ ابن هاشم ـ واسمه عمرو ـ بن عبد مناف بن قصىّ . الغالبُ عليه من الكنية عليه السلام أبو الحسن . وكان ابنه الحسن عليه السلام يدعوه فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أبا الحسين ، ويدعوه الحسين عليه السلام أبا الحسن ، ويدعوان رسول الله صلى الله عليه وآله أباهما ، فلما تُوُفّىَ النبىّ صلى الله عليه وآله [1] دعواه بأبيهما .

وكنّاه رسول الله صلى الله عليه وآله أبا تراب ، وجَدَه نائماً فى تراب ، قد سقط عنه رداؤه ، وأصاب التراب جَسَده ، فجاء حتى جلس عند رأسه وأيقظه ، وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول له : اجلس ! إنما أنت أبو تراب [2] . فكانتْ من أحبّ كناه إليه صلوات الله عليه ، وكان يفرح إذا دُعِىَ بها ، وكانت تُرَغِّب بنو أمية خطباءها [3]

(١) ساقطة من ا .

(٢) رواية الخبر كما فى صحيح البخارى ، فى كتاب فضائل الصحابة ٢ : ٣٠٠ ؛ بسنده عن عبد الله ابن مسلمة : « أن رجلا جاء إلى سهل بن سعد ، فقال : هذا فلان ـ لأمير المدينة ـ يدعو عليا عند المنبر ، قال : فيقول ماذا ؟ قال : يقول له : أبو تراب . فضحك ، قال : والله ما سماه إلا النبى صلى الله عليه وسلم ، وما كان له اسم أحب إليه . فاستطعمت الحديث سهلا ، وقلت : يا أبا عباس ، كيف ؟ قال : دخل على على فاطمة ، ثم خرج فاضطجع فى المسجد ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أين ابن عمك؟ قالت : فى المسجد ، فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره ، وخلص التراب إلى ظهره ، فجعل يمسح التراب عن ظهره فيقول : اجلس يا أبا تراب ، مرتين » . ولهذا الخبر رواية أخرى ذكرها صاحب الرياض النضرة فى ٢ : ١٥٤ .

(٣) ب ، ج : « لعنت بنو أمية » ، وما أثبته من ا .

أن يسبّوه بها على المنابر، وجعلوها نقيصةً له ووصمةً عليه؛ فكأنّما كسَوْه بها الحُلَى والحُلَل؛ كما قال الحسن البصريّ رحمه الله.

وكان اسمه الأول الذي سمّته به أمه حَيْدَرَة، باسم أبيها أسد بن هاشم — والحيدرة: الأسد — فغيّر أبوه اسمه، وسمّاه عليّاً.

وقيل: إن حيدرةَ اسمٌ كانت قريش تسمّيه به. والقول الأول أصحّ؛ يدلّ عليه خبرُه (١) يوم بَرَز إليه مَرْحَب، وارتجز عليه فقال:

« أنا الذي سَمَّتنِيَ أمّي مَرْحَبَا (٢) »

فأجابه عليه السلام رجزاً:

« أنا الذي سَمّتنِيَ أمّي حَيْدَرَهْ (٣) »

ورجزُهما معا مشهور منقول لا حاجة لنا الآن إلى ذكره.

وتزعم الشيعة أنه خوطب في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بـ « أمير المؤمنين »، خاطبه بذلك جِلّة المهاجرين والأنصار، ولم يثبتْ ذلك في أخبار المحدّثين؛ إلا أنهم قد رووْا ما يُعطِي هذا المعنى، وإن لم يكن اللفظ بعينه، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله له: « أنت يَعْسُوب الدّين والمالُ يعسوب الظَّلَمَة »، وفي رواية أخرى: « هذا يعسوب المؤمنين،

---

(١) الخبر رواه مسلم متصلا بسنده عن إياس بن سلمة عن أبيه، في كتاب الجهاد والسير ص ١٤٣٣ — ١٤٤١، في غزوة خيبر.

(٢) رواية مسلم:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي مَرْحَبُ شَاكِي السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

« إذَا الحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ »

(٣) بقيته، كما رواه مسلم:

كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ المَنْظَرَهْ أُوفِيهِمُ بالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

والسندرة: مكيال واسع.

وقائد الغرّ المحجّلين »[1] . واليعسوب : ذَكَر النحل وأميرها . روى هاتين الروايتين أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانيّ في " المسند " في كتابه " فضائل الصحابة " ، ورواها أبو نُعيم الحافظ في " حلية الأولياء " [2] .

ودُعي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بوصيّ رسول الله، لوصايته إليه بما أراده. وأصحابنا لا ينكرون ذلك ، ولكن يقولون : إنها لم تكن وصيةً بالخلافة ، بل بكثير من المتجددات بعده ، أفضى بها إليه عليه السلام . وسنذكر طرفاً من هذا المعنى فيما بعد .

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ ، أول هاشمية وَلَدَت لهاشميّ ، كان عليّ عليه السلام أصغرَ بنيها ، وجعفر أسنّ منه بعشر سنين ، وعَقِيل أسنّ منه بعشر سنين ، وطالب أسنّ من عَقِيل بعشر سنين ؛ وفاطمة بنت أسد أمّهم جميعاً .

وأمّ فاطمة بنت أسد فاطمة[3] بنت هَرِم بن رواحة بن حُجْر بن عبد بن مَعِيص [ابن عامر بن لؤيّ . وأمها حدية بنت][4] وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان ابن محارب بن فهر . [وأمها فاطمة بنت عبيد بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤيّ، وأمها سلمى بنت عامر بن ربيعة بن هلال بن أُهَيب بن ضَبّة بن الحارث بن فهر][4] . وأمها عاتكة بنت أبي هَمْهَمة ـ واسمه عمرو بن عبد العزّى ـ بن عامر بن عُمَيرة بن وديعة[5] بن الحارث ابن فِهر ، [وأمها تُماضر بنت عمرو بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي][4] ، وأمها حبيبة ؛ وهي أمة الله بنت عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حُطَيط بن جُشَم ابن قسيّ ؛ وهو ثقيف . وأمها فلانة بنت مخزوم بن أسامة بن ضبع[6] بن وائلة بن نصر ابن صعصعة بن ثعلبة بن كنانة بن عمرو بن قَيْن بن فَهْم بن عمرو بن قيس بن عَيْلان

---

(١) ورواه أيضا الطبراني في الكبير ، ونقله صاحب الرياض النضرة ٢ : ١٥٥ ؛ مع اختلاف في اللفظ.

(٢) حلية الأولياء ١ : ٦٣ ، بسنده عن أنس ، ولفظه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس، أول من يدخل من هذا الباب أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وقائد الغر المحجلين ، وخاتم الوصيين » .

(٣) في مقاتل الطالبيين : « وتعرف بحبي بنت هرم » .

(٤) تكملة من مقاتل الطالبيين . (٥) مقاتل الطالبيين : « ابن أبي وديعة » .

(٦) كذا في ب ، وفي ا : « ضبيح » ، وفي مقاتل الطالبيين « صبح » .

ابن مضر . وأمها رَيْطة بنت يسار بن مالك بن حُطَيْط بن جُشَم بن ثقيف . وأمها كلّة[1] بنت حصين بن سعد بن بكر بن هوازن . وأمها حُبّى بنت الحارث بن النابغة بن عميرة ابن عوف بن نصر بن بكر بن هوازن . ذكر هذا النسب أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهانيّ في كتاب " مقاتل الطالبيين "[2] .

أسلمت فاطمة بنت أسد بعد عشرة من المسلمين ؛ وكانت الحادية عشرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يكرمها ويعظّمها ويدعوها : « أمي » ، وأوصتْ إليه حين حضرتْها الوفاة ، فقَبِل وصيتَها ، وصلّى عليها ، ونزل في لحدها ، واضطجع معها فيه بعد أن ألبسها قميصه ، فقال له أصحابه : إنّا ما رأيناك صنعتَ يارسول الله بأحد ماصنعتَ بها ، فقال : « إنّه لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبرَّ بي منها ، إنما ألبستُها قميصي لتُكْسَى من حُلَل الجنة ، واضطجعتُ معها ليهونَ عليها ضغطة القبر » .

وفاطمة أوّل امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله من النساء .

وأمّ أبي طالب بن عبد المطلب فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وهي أمّ عبد الله ، والد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأمّ الزبير بن عبد المطلب ؛ وسائرُ ولد عبد المطلب بَعْدُ لأمهات شتى .

واختُلف في مولد عليّ عليه السلام أين كان ؟ فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد في الكعبة ، والمحدّثون لا يعترفون بذلك ، ويزعمون أنّ المولود في الكعبة حكيم بن حِزام بن خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قصيّ .

واختلف في سنّه حين أظهر النبيّ صلى الله عليه وآله الدعوة ، إذْ تكامل له صلوات الله عليه أربعون سنة ، فالأشهرُ من الروايات أنه كان ابنَ عشر . وكثير من أصحابنا المتكلّمين يقولون : إنه كان ابن ثلاث عشرة سنة ؛ ذكر ذلك شيخنا أبو القاسم البلخيّ وغيره من شيوخنا .

---

(١) مقاتل الطالبيين : « كلية بنت قصية » . (٢) في ترجمة جعفر بن أبي طالب ص ٧ .

والأوّلون يقولون : إنّه قتل وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وهؤلاء يقولون : ابن ستّ وستين ، والروايات في ذلك مختلفة . ومن الناس من يزعم أن سنّه كانت دون العشر ، والأكثر الأظهر خلاف ذلك .

وذكر أحمد بن يحيى البلاذريّ وعليّ بن الحسين الأصفهانيّ أنّ قريشاً أصابتها أزمة وقحط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعمّيه : حمزة والعباس : « ألا نحمل ثقلَ أبي طالب في هذا المَحْل ! » ، فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دَعُوا لي عَقِيلا وخذوا مَنْ شئتم – وكان شديد الحبّ لعقيل – فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفراً ، وأخذ محمد صلى الله عليه وآله عليًّا ، وقال لهم : « قد اخترت – من اختاره الله لي عليكم – عليًّا » ، قالوا : فكان عليّ عليه السلام في حِجْر رسول الله صلى الله عليه وآله ، منذ كان عمره ستّ سنين .

وكان ما يُسْدِي إليه صلواتُ الله عليه من إحسانه وشفقته وبرّه وحسن تربيته ؛ كالمكافأة والمعاوضة لصنيع أبي طالب به ؛ حيث مات عبد المطلب وجعله في حِجْره . وهذا يطابق قوله عليه السلام : « لقد عبدتُ اللهَ قبل أنْ يعبدَه أحد من هذه الأمة سبع سنين » ، وقوله : « كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعاً » ؛ ورسول الله صلى الله عليه وآله حينئذ صامت ما أُذِنَ له في الإنذار والتبليغ ؛ وذلك لأنه إذا كان عمرُه يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة ، وتسليمه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من أبيه وهو ابن ستّ ؛ فقد صحّ أنه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين ؛ وابن ستّ تصحّ منه العبادة إذا كان ذا تمييز ، على أنّ عبادةَ مثله هي التعظيم والإجلال وخشوع القلب ، واستخذاء الجوارح إذا شاهد شيئا من جلال الله سبحانه وآياته الباهرة ، ومثلُ هذا موجود في الصبيان .

وقُتِل عليه السلام ليلة الجمعة لثلاث عشرة بَقِين من شهر رمضان ، سنة أربعين في

رواية أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ[1] — وهي الرواية المشهورة — وفي رواية أبي مِخْنَف أنّها كانت لإحدى عشرة ليلةً بَقِين من شهر رمضان ، وعليه الشيعةُ في زماننا .

والقول الأول أثبتُ عند المحدّثين ، والليلة السابعة عشرة من شهر رمضان هي ليلة بدر ، وقد كانت الروايات وردت أنه يقتل في ليلة بدر ، عليه السلام . وقبره بالغَرِيّ .

وما يدّعيه أصحاب الحديث — من الاختلاف في قبره ، وأنّه حُمِل إلى المدينة ، أو أنّه دُفِن في رحبة الجامع ، أو عند باب قصر الإمارة ، أو نَدَّ البعير الذي حُمِل عليه فأخذته الأعراب — باطل كلّه ، لا حقيقة له ، وأولاده أعرفُ بقبره ؛ وأولاد كلّ الناس أعرفُ بقبور آبائهم من الأجانب ؛ وهذا القبر الذي زاره بنوه لما قَدِموا العراق ، منهم جعفر بن محمد عليه السلام وغيرُه من أكابرهم وأعيانهم .

وروى أبو الفرج في « مقاتل الطالبيين » بإسناد[2] ذكره هناك أنّ الحسين عليه السلام لما سئل : أين دفنتم أمير المؤمنين ؟ فقال : خرجنا به ليلا من منزله بالكوفة ، حتى مررنا[3] به على مسجد الأشعث ، حتى انتهينا به إلى الظَّهْر بجنب الغَرِيّ .

وسنذكر خبر مقتله عليه السلام فيما بعد .

فأما فضائله عليه السلام ؛ فإنها قد بلغت من العِظَم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغاً يسمُجُ معه التعرّض لذكرها ، والتصدّي لتفصيلها ؛ فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل والمعتمد : رأيتُني فيما أتعاطى من وصف فضلك ، كالمخبِر عن ضَوْء النهار الباهر ، والقمرِ الزاهر ، الذي لا يخفى على الناظر ؛ فأيقنت أنّي حيث انتهى بيَ القولُ منسوب إلى العَجْز ، مقصّر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك ، ووكلت الإخبارَ عنك إلى علم الناس بك .

وما أقولُ في رجل أقرّ له أعداؤه وخصومه بالفضل ، ولم يمكنهم جَحْدُ مناقبه ،

---

(١) نقلها أبو الفرج في مقاتل الطالبيين .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٤٢ : « الحسن » .

(٣) كذا في الأصول ومقاتل الطالبيين والأجود : « فررنا » .

ولا كتمان فضائله ، فقد علمت أنه استولى بنو أمية على سلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها ، واجتهدوا بكل حيلة في إطفاء نوره ، والتحريض عليه ، ووضع المعايب والمثالب له ، ولعنوه على جميع المنابر ، وتوعدوا مادحيه ، بل حبسوهم وقتلوهم ، ومنعوا من رواية حديث يتضمن له فضيلة ، أو يرفع له ذكرا ، حتى حظروا أن يسمى أحد باسمه ؛ فما زاده ذلك إلا رفعة وسموًا ؛ وكان كالمسك كلما سُتِر انتشر عَرْفه ، وكلما كُتِم تضوّع نَشْرُه ؛ وكالشمس لا تُستَر بالراح ، وكضوء النهار إن حُجِبت عنه عين واحدة ، أدركته عيون كثيرة .

وما أقول في رجل تُعزَى إليه كلُّ فضيلة ، وتنتهي إليه كل فِرْقة ، وتتجاذبه كلُّ طائفة ، فهو رئيس الفضائل ويَنبوعها ، وأبو عُذْرِها ، وسابق مضمارها ، ومجلِّي حَلْبتها؛ كلُّ مَنْ بزغ فيها بعده فمنه أخذ ، وله اقتفى ، وعلى مثاله احتذى .

وقد عرفت أنّ أشرف العلوم هو العلم الإلهيّ ، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم ، ومعلومه أشرف الموجودات ، فكان هو أشرف العلوم ، ومن كلامه عليه السلام اقتبس ، وعنه نقل ، وإليه انتهى ؛ ومنه ابتدأ ، فإنّ المعتزلة[1] ـ الذين هم أهلُ التوحيد والعدْل ، وأرباب النظر ، ومنهم تعلّم الناس هذا الفن ـ تلامذتُه وأصحابه ؛ لأنّ كبيرهم واصل بن عطاء تلميذُ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة[2] ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذه عليه السلام . وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن عليّ بن [إسماعيل بن][3] أبي بشر الأشعريّ ، وهو تلميذ أبي عليّ الجُبّائيّ ، وأبو عليّ أحد مشايخ المعتزلة ؛ فالأشعرية ينتهون بأخَرَةٍ إلى أستاذ المعتزلة ومعلّمهم ، وهو عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر .

* * *

(١) انظر أمالي المرتضى ١ : ١٤٨ وما بعدها ؛ في كلام للمؤلف عن سند المعتزلة إلى علي عليه السلام .
(٢) هو إمام الكيسانية ؛ وعنه انتقلت البيعة إلى بني العباس . تنقيح المقال ٢ : ٢١٢ .
(٣) من ابن خلكان ١ : ٣٢٦ .

ومن العلوم علم الفقه ، وهو عليه السلام أصله وأساسه ، وكلّ فقيه فى الإسلام فهو عيال عليه ، ومستفيد من فقهه ؛ أما أصحابُ أبى حنيفة كأبى يوسف ومحمد وغيرهما فأخذوا عن أبى حنيفة ، وأما الشافعىّ فقرأ على محمد بن الحسن ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبى حنيفة ، وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعىّ ، فيرجع فقهه أيضاً إلى أبى حنيفة ؛ وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام ، وقرأ جعفر على أبيه عليه السلام ، وينتهى الأمر إلى علىّ عليه السلام . وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأى ، وقرأ ربيعة على عِكْرمة ، وقرأ عِكْرمة على عبدالله بن عباس ، وقرأ عبدالله بن عباس على علىّ بن أبى طالب[1] ؛ وإن شئت فرددتَ[2] إليه فقهَ الشافعىّ بقراءته على مالك كان لك ذلك ؛ فهؤلاء الفقهاء الأربعة .

وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر ، وأيضاً فإن فقهاء الصحابة كانوا : عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس؛ وكلاهما أخذ عن علىّ عليه السلام . أما ابنُ عباس فظاهر ، وأمّا عمر فقد عَرَف كلّ أحدٍ رجوعَه إليه فى كثير من المسائل التى أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة، وقولَه غير مرّة: «لولا علىٌّ لهلك عمر»، وقولَه: «لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن»، وقوله: «لا يُفتِيَنّ أحد فى المسجد وعلىّ حاضر»؛ فقد عُرِف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقه إليه.

وقد روت العامة والخاصّة قوله صلى الله عليه وآله : « أقضاكم علىّ »[3]، والقضاء هو الفقه ؛ فهو إذاً أفقهُهم . وروى الكلّ أيضاً أنه عليه السلام قال له وقد بعثه إلى اليمن قاضياً : « اللهمّ اهدِ قلبه وثبّت لسانه » ، قال : فما شككتُ بعدها فى قضاء بين اثنين[4] ،

(١) ب : « عن علىّ » . (٢) فى الأصول : « رددت » .

(٣) نقله السيوطى فى الجامع الصغير ١ : ٨ ، عن مسند أبى يعلى بلفظ : « أرأف أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ... » وضعفه .

(٤) رواه أبو داود فى كتاب الأقضية ٣ : ٤٠٩ بسنده عن على ، ولفظه : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضيا فقلت : يارسول الله ، ترسلنى وأنا حديث السن ، ولا علم لى بالقضاء ! فقال : « إن الله سيهدى قلبك ويثبت لسانك ، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء » ، قال : فما زلت قاضيا — أو ماشككت فى قضاء بعد .

وهو عليه السلام الذى أفتى فى المرأة التى وضعت لستة أشهر ، وهو الذى أفتى فى الحامل الزانية[١] ؛ وهو الذى قال فى المِنبرية[٢] :صار ثُمُنها تُسْعا . وهذه المسألة لو فكّر الفَرَضيّ فيه فكراً طويلاً لاستُحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب ، فما ظنّك بمن قاله بديهة، واقتضبه ارتجالا !

ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أُخِذ ، ومنه فُرّع . وإذا رجعتَ إلى كتب التفسير علمتَ صحة ذلك ؛ لأنّ أكثره عنه وعن عبد الله بن عباس، وقد علم الناس حالَ ابن عباس فى ملازمته له ، وانقطاعه إليه، وأنّه تلميذُه وخرّيجه. وقيل له: أين علمك من علم ابن عمّك ؟ فقال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط .

ومن العلوم علمُ الطريقة والحقيقة وأحوال التصوّف ؛ وقد عرفتَ أن أربابَ هذا الفنّ فى جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون ، وعنده يقفون ؛ وقد صرّح بذلك الشِّبْلىّ ، والجُنَيد ، وسَرِىّ[٣] ، وأبو يزيد البِسْطامىّ ، وأبو محفوظ معروف الكرخىّ ؛ وغيرهم . ويكفيك دلالة على ذلك الخِرْقة[٤] التى هى شعارهم إلى اليوم ، وكونهم يُسنِدونها بإسناد متّصل إليه عليه السلام .

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره ١٦ : ١٩٣ ؛ عند الكلام على تفسير قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ أن عثمان قد أتى بامرأة قد ولدت لستة أشهر ، فأراد أن يقضى عليها بالحد ، فقال له على رضى الله عنه : ليس ذلك عليها ، قال الله تعالى :﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ .

(٢) سميت المنبرية ؛ لأنه سئل عنها وهو على المنبر ؛ فأفتى من غير روية ؛ وبيانها أنه سئل فى ابنتين وأبوين وامرأة ؛ فقال : صار ثمنها تسعا ، قال أبو عبيد : أراد أن السهام عالت حتى صار للمرأة التسع ، ولها فى الأصل الثمن ؛ وذلك أن الفريضة لو لم تعل كانت من أربعة وعشرين ، فلما عالت صارت من سبعة وعشرين ، فللابنتين الثلثان : ستة عشر سهما ، وللأبوين السدسان : ثمانية أسهم ، وللمرأة ثلاثة من سبعة وعشرين ؛ وهو التسع ، وكان لها قبل العول ثلاثة من أربعة وعشرين ؛ وهو الثمن . وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ١٣٩ ، واللسان ١٣ : ٥١٢ ، وحاشية البقرى على متن الرحبية ٣٤

(٣) هو سرى بن المغلس السقطى ؛ خال الجنيد وأستاذه ، وصاحب معروف الكرخى ؛ وأول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال . مات سنة ٢٥١ . (طبقات الصوفية للسلمى ص ٤٨)

(٤) فصل السهروردى فى الباب الثانى عشر من كتابه عوارف المعارف (٤ : ١٩١ وما بعدها — على هامش الإحياء) الكلام فى شرح خرقة المشايخ الصوفية ولبسها .

ومن العلوم علم النحو والعربية ؛ وقد علم الناس كافة أنه هو الذى ابتدعه وأنشأه ، وأملى على أبى الأسود الدؤلى جوامعه وأصوله ، من جملتها : الكلام كلّه ثلاثة أشياء : اسم وفعل وحرف ؛ ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم (١) ، وهذا يكاد يُلحق بالمعجزات ؛ لأن القوة البشرية لا تفى بهذا الحصر ، ولا تنهض بهذا الاستنباط .

وإن رجعت إلى الخصائص الخُلُقية والفضائل النفسانية والدينية وجدته ابن جَلاها وطلّاع ثناياها (٢)

● ● ●

وأما الشجاعة فإنه أنسى الناسَ فيها ذكر مَنْ كان قبله، ومحا اسمَ من يأتى بعده ومقاماتُه فى الحرب مشهورة يُضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة ؛ وهو الشجاع الذى ما فرّ قطّ ، ولا ارتاع من كتيبة ، ولا بارز أحداً إلا قتله ؛ ولا ضرب ضربة قطّ فاحتاجت الأولى إلى ثانية ؛ وفى الحديث : « كانت ضرباته وتراً » . ولما دعا معاويةَ إلى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما ، قال له عمرو : لقد أنصفك ، فقال معاوية : ما غششتنى منذ نصحتنى إلا اليوم ، أتأمرنى بمبارزة أبى الحسن وأنت تعلم أنه الشجاع المطرِق ! أراك طمعت فى إمارة الشام بعدى ! وكانت العرب تفتخر بوقوفها فى الحرب فى مقابلته ، فأما قتلاه فافتخارُ رهطهم بأنّه عليه السلام قتلهم أظهرُ وأكثر ، قالت أخت عمرو ابن عبد وَدّ ترثيه :

لو كان قاتلُ عمرٍو غيرَ قاتِلِهِ بكيتُه أبداً ما دُمْتُ فى الأبدِ (٣)

---

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٤٢ – ٥٠ . (٢) اقتباس من قول سحيم بن وثيل الرياحى :

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا مَتَى أَضَعِ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِى

وابن جلا ، أى الواضح الأمر ؛ وطلاع الثنايا : كناية عن السمو إلى معالى الأمور ، والثنايا فى الأصل : جمع ثنية ، وهى الطريق فى الجبل . وانظر اللسان ١٨ : ١٦٥

(٣) من أبيات ذكرها صاحب اللسان ٨ : ٣٩٥ ، وروايته :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ بَكَيْتُهُ ما أَقَامَ الرُّوحُ فى جَسَدِى

لَكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ وَكَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيْضَةَ الْبَلَدِ

لكنّ قاتِلَهُ مَنْ لا نظــير له   وكان يُدْعَى أبوه بَيْضَة البَلَدِ (١)

واتتبه يوماً معاوية ، فرأى عبد الله بن الزُّبير جالساً تحت رجليه على سريره فقعد ، فقال له عبد الله يداعبه: ياأميرَ المؤمنين، لوشئت أن أفْتِكَ بك لفعلت ، فقال:لقد شَجُعْت بعدنا يا أبا بكر ! قال:وما الذى تنكره من شجاعتى وقد وقفتُ فى الصفّ إزاء علىّ بن أبى طالب ! قال : لا جَرَم ، إنّه قتلك وأباك بيسرى يديه ، وبقيتِ اليمنى فارغةً ، يطلب مَنْ يقتله بها .

وجملة الأمر أن كلّ شجاع فى الدنيا إليه ينتهى ، وباسمه ينادى فى مشارق الأرض ومغاربها .

•••

وأما القوّة والأيْد فبه يُضرب المثل فيهما؛ قال ابن قتيبة فى " المعارف " : ماصارع أحداً قطّ إلا صرعه(٢). وهو الذى قلع باب خيبر، واجتمع عليه عُصبة من الناس ليقلبوه فلم يقلبوه ؛ وهو الذى اقتلع هُبَلَ من أعلى الكعبة، وكان عظيماً جداً ، وألقاه(٣) إلى الأرض، وهو الذى اقتلع الصخرة العظيمة فى أيام خلافته عليه السلام بيده بعد عجز الجيش كله عنها، وأنبط (٤) الماء من تحتها .

•••

وأمّا السخاء والجود فحاله فيه ظاهرة؛ وكان يصوم ويطْوِى ويُؤثِر بزاده ؛ وفيه أنزل: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ، إنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ (٥) . وروى المفسرون أنه لم يكن يملك إلا أربعة دراهم ؛ فتصدّق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سرًّا وبدرهم علانية ؛ فأنزل فيــه : ﴿ الَّذِينَ

(١) بيضة البلد ، يريد على بن أبى طالب ، أى أنه فرد ليس مثله فى الشرف كالبيضة التى هى تريكة وحدها ، ليس معها غيرها ، كذا فسره فى اللسان .

(٢) المعارف ٢١٠ ، وبعدها : « شديد الوثب قوى الضرب » .

(٣) ب : « فألقاه » .   (٤) ب ج : « فأنبط » .

(٥) سورة الإنسان ٩ ، ١٠ .

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [١] .

وروى عنه أنه كان يَسقِي بيده لنخلِ قوم من يهود المدينة ، حتى مَجَلَت [٢] يده ، ويتصدق بالأُجْرة ، ويشدّ على بطنه حجَرا .

وقال الشعبيّ وقد ذكره عليه السلام : كان أسخَى الناس ؛ كان على الخُلُق الذى يحبّه الله : السخاء والجود ، ماقال : « لا » لسائل قطّ .

وقال عدوّه ومُبْغِضه الذى يجتهد فى وَصْمِه وعيبه معاوية بن أبى سفيان لِمحْفَن [٣] بن أبى محْفَن الضبيّ لما قال له : جئتك مِنْ عند أبخل الناس ، فقال : ويحك ! كيف تقول إنه أبخل الناس ، لو مَلَك بيتاً من تِبْر وبيتاً من تِبْن لأنفد تِبْره قبل تِبْنِه .

وهو الذى كان يكنُس بيوت الأموال ويصلّى فيها . وهو الذى قال : ياصفراء ، ويابيضاء ، غرّى غيرى ، وهو الذى لم يخلّف ميراثا ، وكانت الدنيا كلّها بيده إلّا ما كان من الشام .

• • •

وأما الحلم والصفح فكان أحلمَ الناس عن ذَنْب ، وأصفحَهم عن مسيء ؛ وقد ظهر صحّة ماقلناه يومَ الجمل؛ حيث ظفِر بمرْوان بن الحكم ـ وكان أعدَى الناس له ، وأشدّهم بغضا ـ فصفح عنه .

وكان عبد الله بن الزّبير يشتِمه على رءوس الأشهاد ، وخطب يوم البصرة فقال : قد أتاكم الوَغْد [٤] اللئيم علىّ بن أبى طالب . وكان علىّ عليه السلام يقول : مازال الزبير

(١) سورة البقرة ٢٧٤ ؛ وللمفسرين فى هذه الآية أسباب أخرى للنزول ، ذكرها القرطبى فى التفسير ١٩ : ١٢٨ ؛ وانظر أيضا أسباب النزول للواحدى ٢٣١

(٢) مجلت يده ، أى ثخن جلده وتعجر وظهر فيه مايشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة ، ومنه حديث فاطمة : أنها شكت إلى علىّ مجل يديها من الطحن . النهاية لابن الأثير ٤ : ٨٠

(٣) أورده الذهبى فى المشتبه ص ٥٧٣ ؛ وقال : « وفد على معاوية » .

(٤) فى ب : « الوغب » ، وهما بمعنى .

رجلاً منا أهلَ البيت حتى شبَّ عبـد الله ، فظفر به يوم الجمل ، فأخذه أسيراً ، فصفح عنه ، وقال : اذهب فلا أرينَّك ؛ لم يزده على ذلك .

وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمـكة ـ وكان له عدوًّا ـ فأعرض عنه ولم يقلْ له شيئاً .

وقد علمتَ ما كان من عائشة في أمره ، فلما ظفر بها أكرمها ، وبعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمَّمهنَّ بالعمائم وقلَّدهنَّ بالسيوف ، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يُذكر به ، وتأففت وقالت : هتك سترى برجاله وجنده الذين وكَّلهم بي . فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمائمهنَّ ، وقلن لها : إنما نحن نسوة .

وحاربه أهل البصرة ، وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف ، وشتموه ولعنوه ، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم ، ونادى مناديه في أقطار العسكر : ألا لا يُتبَع[1] مُولٍ ، ولا يُجهَزُ على جريح ، ولا يُقتَل مستأسر ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيَّز إلى عسكر الإمام فهو آمن . ولم يأخذ أثقالهم ، ولا سبى ذراريهم ، ولا غنم شيئاً من أموالهم ، ولو شاء أن يفعل كلَّ ذلك لفعل ، ولكنه أبى إلا الصفح والعفو ؛ وتقيَّل سنةَ رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكةَ ، فإنه عفا والأحقاد لم تبرد ، والإساءة لم تُنْسَ .

ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء ، وأحاطوا بشريعة الفرات ، وقالت رؤساء الشام له : اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً ، سألهم عليٌّ عليه السلام وأصحابه أن يشرعوا[2] لهم شِرْبَ الماء ، فقالوا : لا والله ، ولا قطرة حتى تموت ظمأً كما مات ابن عفان ؛ فلما رأى عليه السلام أنه الموتُ لا محالةَ تقدَّم بأصحابه ، وحمل على عساكر معاوية حملاتٍ كثيفة ، حتى أزالهم عن مراكزهم بعد قتل ذريع ، سقطت منه الرءوس والأيدى ، وملكوا عليهم

---

(١) ا : « لا يتبع موله » .   (٢) كذا في ا ، وفي ب : « يسوغوا » .

الماء ، وصار أصحاب معاوية فى الفَلاة ، لا ماء لهم ، فقال له أصحابه وشيعتُه : امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك ، ولا تَسقِهم منه قطرة ، واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضًا بالأيدى فلا حاجة لك إلى الحرب ، فقال : لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم ، أفسِحوا لهم عن بعض الشَّريعة ، فنى حدّ السيف ما يغنى عن ذلك . فهذه إن نَسبْتَها إلى الحلم والصفح فناهيك بها جمالا وحسنا ، وإن نسبتها إلى الدين والورع فأخلِقْ بمثلها أن تصدر عن مثله عليه السلام !

• • •

وأما الجهاد فى سبيل الله فمعلوم عند صديقه وعدوّه أنه سيّد المجاهدين ؛ وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له ! وقد عرفتَ أنّ أعظمَ غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وأشدّها نكاية فى المشركين بدر الكبرى ؛ قُتل فيها سبعون من المشركين ، قتَل علىّ نصفَهم ، وقَتل المسلمون والملائكة النصف الآخر . وإذا رجعتَ إلى مغازى محمد بن عمر الواقدىّ وتاريخ الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذرىّ وغيرهما علمت صحة ذلك ؛ دعْ مَن قتله فى غيرها كأُحُد والخندق وغيرهما ؛ وهذا الفصل لامعنى للإطناب فيه ؛ لأنه من المعلومات الضرورية ، كالعِلم بوجود مكّة ومصر ونحوهما .

• • •

وأمّا الفصاحةُ فهو عليه السلام إمام الفصحاء ، وسيد البلغاء ؛ وفى كلامه[1] قيل : دون كلام الخالق ، وفوق كلام المخلوقين . ومنه تعلّمَ الناس الخطابة والكتابة ، قال عبد الحميد بن يحيى : حفظتُ سبعين خطبة من خطب الأصلع ، ففاضت ثم فاضت . وقال ابن نُباته[2] : حفظت من الخطابة كنزاً لايزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة ، حفظت مائة فصل من مواعظ علىّ بن أبى طالب .

ولما قال مِحفن بن أبى مِحفن لمعاوية : جئتك من عند أعيَا الناس ، قال له : ويحك !

(١) ب : « ومن كلامه » . (٢) هو عبد الرحيم بن محمد بن محمد بن إسماعيل الفارق الجذامى.

كيف يكون أعيا الناس ! فو الله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره . ويكفى هذا الكتاب الذى نحن شارحوه دلالة على أنه لا يجارَى فى الفصاحة ، ولا يبارَى فى البلاغة . وحسبك أنه لم يدوَّنْ لأحدٍ من فصحاء الصحابة العُشْر ولا نصف العُشْر مما دُوِّن له ، وكفاك فى هـذا الباب ما يقوله أبو عثمان الجاحظ فى مدحه فى كتاب " البيان والتبيين " وفى غيره من كتبه .

• • •

وأما سجاحة الأخلاق ، وبِشْر الوجه ، وطلاقة المحيَّا والتبسم ، فهو المضروبُ به المثل فيه ؛ حتى عابه بذلك أعداؤه ؛ قال عمرو بن العاص لأهل الشام : إنه ذو دُعابة شديدة . وقال علىّ عليه السلام فى ذلك [illegible] لابن النابغة ! يزعم لأهل الشام أن فىّ دعابة ، وأنى امرؤ تِلْعابة ، أعافس وأمارس[1] . وعمرو بن العاص إنما أخذها عن عمر ابن الخطاب لقوله له لما عزم على استخلافه : لله أبوك لولا دُعابة فيك ! إلا أنّ عمر اقتصر عليها ، وعمرو زاد فيها وسمّجها .

قال صعصعة بن صُوحان وغيره من شيعته وأصحابه : كان فينا كأحدنا ، لِين جانب ، وشدّة تواضع ، وسهولة قِياد ، وكنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسيّاف الواقف على رأسه .

وقال معاوية لقيس بن سعد : رحِم الله أبا حسن ! فلقد كان هشًّا بشًّا ، ذا فُكاهة . قال قيس : نعم ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزَحُ ويبتسم إلى أصحابه ، وأراك تُسِرّ حَسْواً فى ارتِغاء[2] ، وتعيبه بذلك ! أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيبَ من ذى لِبْدتين قد مسّه الطَّوى ؛ تلك هيبة التقوى ، وليس كما يهابك طَغَامُ أهل الشام .

---

(١) التلعابة ، بفتح التاء وكسرها : الكثير اللعب والمرح . والمعافسة : الملاعبة أيضاً . والممارسة : ملاعبة النساء . والخبر أورده ابن الأثير فى النهاية ١ : ١١٧ ، و٣ : ٥٩ ، ١١٠ ، و٤ : ٥٩ ، ٨٩ .
(٢) فى المثل : « هو يسر حسوا فى ارتغاء » ، يضرب لمن يظهر أمرا ويريد غيره . اللسان ١٩ : ٤٦ .

وقد بقيَ هذا الخلُقُ متوارَثاً متناقَلا في محبّيه وأوليائه إلى الآن ، كما بقيَ الجفاء والخشونة والوعورة في الجانب الآخر ، ومَنْ له أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك .

* * *

وأمّا الزهد في الدنيا فهو سيّد الزهاد ، وبدَل الأبدال ، وإليه تشدُّ الرحال ، وعنده تُنفَضُ الأحلاس ! ما شبِعَ من طعام قطّ . وكان أخشنَ الناس مأكلا وملبساً ! قال عبد الله بن أبي رافع : دخلت إليه يوم عيد ، فقدّم جِراباً مختوماً ، فوجدنا فيه خبزَ شعير يابساً مرضوضاً ، فقدّم فأكل ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، فكيف تختِمه ؟ قال : خفت هذين الولدين أن يلُتّاه بسمن أو زيت .

وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة وليف أخرى ، ونعلاه من ليف . وكان يلبَس الكِرْباس[1] الغليظ ، فإذا وجد كمّه طويلا قطعه بشفرة ، ولم يخِطْه ، فكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتى يبقى [illegible] وكان ما تقدم إذا ائتدم بخلّ أو مِلح ، فإن ترقّى عن ذلك فبعض نبات الأرض ، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل . ولا يأكل اللحم إلّا قليلا ، ويقول : لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان . وكان مع ذلك أشدَّ الناس قوّةً وأعظمهم أيْداً ، لا يَنقِصُ[2] الجوع قوّته ، ولا يَخُوَّن[3] الإقلالُ مُنّته . وهو الذي طلّق الدنيا ، وكانت الأموال تُجبى إليه من جميع بلاد الإسلام إلا من الشام ، فكان يفرّقها ويمزّقها ، ثم يقول :

هــــذا جَنَايَ وخِيارُه فيه ... إذْ كُلُّ جانٍ يدُه إلى فيه[4]

(١) الكرباس بالكسر : ثوب من القطن الأبيض ، معرب .

(٢) ب ، ج : « ينقص » .

(٣) يخون : ينقص ، وفي ب : « يخور » ، وما أثبته عن ا ، ج .

(٤) البيت أنشده عمرو بن عدي حينا كان غلاما ، وكان يخرج مع الخدم يجتنون للملك (جذيمة الأبرش) الكمأة ، فكانوا إذا وجدوا كمأة خيارا أكلوها وأتوا بالباقي إلى الملك ، وكان عمرو لا يأكل منه ، ويأتي به كما هو ، وينشد البيت . وانظر القاموس ٣ : ٢٥٩ ــ ٢٦٠ ، وحديث علي ورد مفصلا في حلية الأولياء ١ : ٨١ .

وأمّا العبادة فكان أعبدَ الناس وأكثرَهم صلاة وصوماً ؛ ومنه تعلّم الناس صلاة الليل ، وملازمة الأوراد وقيام النافلة ؛ وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على وِرده أن يُبْسَطُ له نِطَعٌ بين الصفّين ليلة الهرير ، فيصلي عليه وِرْدَه ، والسهام تقع بين يديه وتمرّ على صِماخيه يميناً وشمالا ، فلا يرتاع لذلك ، ولا يقوم حتى يفرُغ من وظيفته ! وما ظنك برجل كانت جبهته كثَفِنة البعير لطول سجوده !

وأنت إذا تأمّلت دعواتِه ومناجاتِه ، ووقفتَ على ما فيها من تعظيمِ الله سبحانه وإجلاله ، وما يتضمّنه من الخضوع لهيبته ، والخشوع لعزّته والاستخذاء له ، عرفتَ ما ينطوي عليه من الإخلاص ، وفهمت من أيِّ قلبٍ خرجتْ ، وعلى أيّ لسان جرت ؛

وقيل لعليّ بن الحسين عليه السلام ، وكان الغاية في العبادة : أين عبادتك من عبادة جَدِّك ؟ قال : عبادتي عند عبادة جدّي كعبادة جدّي عند عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله .

• • •

وأمّا قراءته القرآن واشتغاله به فهو المنظور إليه في هذا الباب ؛ اتفق الكلّ على أنه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يكن غيره يحفظه ، ثم هو أوّلُ مَنْ جَمعه ؛ نقلوا كلّهم أنّه تأخر عن بيعة أبي بكر ، فأهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنه تأخر مخالفة للبيعة ؛ بل يقولون : تشاغل بجمع القرآن ؛ فهذا يدلّ على أنه أوّلُ مَن جمع القرآن ؛ لأنه لو كان مجموعاً في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لما احتاجَ إلى أن يتشاغل[1] بجمعه بعد وفاته صلى الله عليه وآله . وإذا رجعتَ إلى كتب القراءات وجدت أئمة القراء كلهم يرجعون إليه ؛ كأبي عمرو بن العلاء وعاصم ابن أبي النَّجود وغيرهما ؛ لأنهم يرجعون إلى أبي عبد الرحمن السُّلَميّ القارئ ،

(١) ب : « تشاغل » .

وأبو عبد الرحمن كان تلميذه ، وعنه أخذ القرآن ؛ فقد صار هذا الفنّ من الفنون التى تنتهى إليه أيضاً ، مثل كثير مما سبق .

* * *

وأمّا الرأىُ والتدبير فكان من أسَدّ الناس رأياً ، وأصحِّهم تدبيراً ؛ وهو الذى أشار على عمر بن الخطاب لما عزم على أنْ يتوجّه بنفسه إلى حرب الروم والفرْس بما أشار . وهو الذى أشار على عثمان بأمور كان صلاحه فيها ، ولو قبلها لم يحدُث عليه ما حدث . وإنّما قال أعداؤه : لا رأىَ له ؛ لأنه كان متقيِّداً بالشريعة لا يرى خلافَها ، ولا يعمل بما يقتضى الدِّينُ تحريمه . وقد قال عليه السلام : لولا الدينُ والتّقى لـكنتُ أدهى العرب . وغيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى مايستصلِحُه ويستوفقه ؛ سواء أ كان مطابقاً للشرع أم لم يكن ؛ ولا ريب أنّ مَنْ يعمل بما يؤدّى إليه اجتهاده ، ولا يقف مع ضوابط وقيود يمتنع لأجلها مما يرى الصلاح فيه ، تكون أحواله الدنيوية إلى الانتظام أقرب ، ومَن كان بخلاف ذلك تكون أحواله الدنيوية إلى الانتشار أقرب .

* * *

وأما السياسةُ فإنه كان شديدَ السياسة ، خشِناً فى ذات الله ، لم يراقب ابنَ عمّه فى عمل كان ولّاه إياه ، ولا راقب أخاه عَقيلا فى كلام جبَهه به . وأحرق قوماً بالنار، ونقض دار مَصْقَلة بن هُبَيرة ودار جرير بن عبد الله البَجَلىّ ، وقطع جماعةً وصلب آخرين .

ومن جملة سياسته فى حروبه أيام خلافته بالجمل وصِفّين والنهروان ، وفى أقلّ القليل منها مقْنَع ، فإنّ كلّ سائس فى الدنيا لم يبلغ فتكه وبطشه وانتقامه مبلغ العشر مما فعل عليه السلام فى هذه الحروب بيده وأعوانه .

فهذه هى خصائص البشر ومزاياهم قد أوضحنا أنه فيها الإمام المتبع فعلُه ، والرئيس المقتفَى أثره .

* * *

وما أقول فى رجلٍ تحبّه أهلُ الذّمة على تـكذيبهم بالنبوّة ، وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملّة ، وتصوّرُ ملوك الفرنج والروم صورتَه فى بِيَعها وبيوت عباداتها ،

حاملا سيفَه ، مشمّراً لحربه ، وتصوَّرَ ملوكُ الترك والدَّيلم صورته على أسيافها ا كان على سيف عَضُد الدولة بن بُوَيْه وسيف أبيه ركن الدولة صورتُه ، وكان على سيف ألب أرسلان وابنه ملَكشاه صورته ، كأنهم يتفاءلون به النصر والظفر .

وما أقولُ فى رجل أحبَّ كلُّ واحدٍ أن يتكثَّر به ، وودّ كلُّ أحدٍ أن يتجمّل ويتحسّن بالانتساب إليه ؛ حتى الفتوّة التى أحسن ماقيل فى حدّها ألا تستحسنَ من نفسك ماتستقبحه من غيرك ، فإنّ أربابها نسبوا أنفسهم إليه ، وصنّفوا فى ذلك كتبا ، وجعلوا لذلك إسنادا أنهوه إليه ، وقصروه عليه ، وسمّوه سيّدَ الفتيان ، وعضدوا مذهبهم إليه بالبيت المشهور المروىّ ، أنه سُمِع من السماء يوم أُحُد :

لا سيفَ إلا ذو الفقا ... رِ ولا فتى إلا على

وما أقول فى رجل أبوه أبو طالب سيّد البطحاء ، وشيخ قريش ، ورئيس مكة ، قالوا : قلّ أن يسوّد فقير وساد أبو طالب وهو فقير لا مال له ، وكانت قريش تسمّيه الشيخ .

وفى حديث عفيف الكندىّ ، لما رأى (١) النبىّ صلى الله عليه وآله يصلّى فى مبدأ الدعوة ، ومعه غلام وامرأة ، قال : فقلت للعباس : أىّ شىء هذا ؟ قال : هذا ابن أخى ، يزعم أنّه رسولٌ من الله إلى الناس ، ولم يتبعه على قوله إلا هذا الغلام — وهو ابن أخى أيضاً — وهذه الامرأة ، وهى زوجته — قال : فقلتُ : ماالذى تقولونه أنتم ؟ قال : ننتظر مايفعل الشيخ — يعنى أباطالب . وأبو طالب هو الذى كَفَل رسولَ الله صلى الله عليه وآله صغيراً ، وحماه وحاطه كبيراً ، ومنعه من مشركى قريش ، ولقىَ لأجله عَنَتاً عظيما ، وقاسى بلاء شديدا ، وصبرَ على نصره والقيام بأمره . وجاء فى الخبر أنّه لما توفّى أبو طالب أوحى إليه عليه السلام وقيل له : اخرج منها ، فقد مات ناصرك .

وله مع شرف هذه الأبوّة أنّ ابن عمه محمد سيدُ الأولين والآخرين وأخاه جعفر ذو الجناحين ، الذى قال له رسول صلى الله عليه وآله : « أشبهتَ خَلقى وخُلُقى » ، فمرّ يحجل

---

(١) الخبر فى أسد الغابة ٣ : ٤١٤ ، مع اختلاف فى الرواية .

فرحاً ! وزوجته سيدة نساء العالمين ، وابنيه سيّدا شباب أهل الجنة ؛ فآباؤه آباء رسول الله ، وأمهاته أمهات رسول الله ، وهو مسوط بلحمه ودمه ، لم يفارقه منذ خلق الله آدم ، إلى أن مات عبدالمطلب بين الأخوين عبد الله وأبي طالب ؛ وأمهما واحدة ، فكان منهما سيّدا الناس ؛ هذا الأول وهذا الثاني ، وهذا المنذر وهذا الهادي !

وما أقول في رجل سَبَق الناس إلى الهدى ، وآمن بالله وعبدَه وكلّ من في الأرض يعبد الحجر ، ويجحد الخالق ؛ لم يسبقه أحد إلى التوحيد إلا السابق إلى كلّ خير محمد رسول الله صلى الله عليه وآله .

ذهب أكثر أهل الحديث إلى أنه عليه السلام أوّل الناس اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وآله إيمانًا به ،ولم يخالف في ذلك إلا الأقلّون .وقد قال هو عليه السلام : أنا الصدّيق الأكبر ؛ وأنا الفاروق الأول ، أسلمت قبل إسلام الناس ، وصلّيت قبل صلاتهم . ومن وقف على كتب أصحاب الحديث تحقق ذلك وعلمه واضحاً . وإليه ذهب الواقديّ وابن جرير الطبريّ ، وهو القول الذي رجحه ونصره صاحب كتاب " الاستيعاب "[1]

ولأنّا إنما نذكر في مقدمة هذا الكتاب جملةً من فضائله عَنّت بالعرض لا بالقصد؛ وجب أن نختصر ونقتصر ، فلو أردنا شرحَ مناقبه وخصائصه لاحتجْنا إلى كتاب مفرد يماثل حَجْم هذا بل يزيد عليه ، وبالله التوفيق[2] .

(١) الاستيعاب لابن عبد البر النمري القرطبي ٢ : ٤٥٧ .

(٢) وانظر ترجمته وأخباره أيضا في أسد الغابة ٤ : ١٦ — ٤٠ ، والاستيعاب ٣ : ١٠٨٩ — ١١٣٣ والإصابة ٤ : ٢٦٩ — ٢٧١ ، وإنباه الرواة ١ : ١٠ — ١٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ١٩١ — ٢٠٧ ، وتاريخ بغداد ١ : ١٣٣ — ١٣٨ ، وتاريخ أبي الفدا ١ : ١٨١ — ١٨٢ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٨٨ — ٩١ ، وتاريخ ابن كثير ٧ : ٢٢٢ — ٢٦١ ، و ٨ : ١ — ١٣ ، وتذكرة الحفاظ ١ : ١٠ — ١٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات ١ : ٣٤٤ — ٣٤٩ ، وتهذيب التهذيب ٧ : ٣٣٤ — ٣٣٩ ، وحلية الأولياء ١ : ٦١ — ٨٧ ، والرياض النضرة ٢ : ١٥٣ — ٢٤٩ ، وشذرات الذهب ١ : ٤٩ — ٥١ ، وصفوة الصفوة ١ : ١١٩ — ١٤٤ ، وطبقات ابن سعد ٢ : ٣٣٧ | ٣ : ١٩ | ٦ : ١٢ ، وطبقات القراء لابن الجزري ١ : ٥٤٦ — ٥٤٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٥ — ٥٠ ، والمعارف ٢٠٣ — ٢١٨ ، ومعجم الأدباء ١٤ : ٤١ — ٥٠ ، ومعجم الشعراء ٢٧٩ — ٢٨٠ ، ومقاتل الطالبيين ٢٤ — ٤٥ ، والنجوم الزاهرة ١ : ١١٩ — ١٢٠ .